

دور المرجعية الشيعية في النجف الاشرف بالحفاظ على وحدة النسيج

الاجتماعي العراقي

أ.د. عبد علي سفيح لازم

بروفسور ومستشار في وزارة التربية والتعليم الفرنسية

المقدمة:

المرجعية الدينية عند الشيعة الامامية كيان فقهي وتشريعي وقيادي كبير يرتبط بها الشيعة بأوثق العلاقات، وتعتبر تعليمات المرجعية بالنسبة للفرد الشيعي لها صفة الأمر والحكم الشرعي الملزم دينيا. تحتل المرجعية الدينية الشيعية مساحة واسعة في الحياة الدينية والاجتماعية، ومساحة أقل في الحياة السياسية.

يعتبر العراق تاريخيا ومنذ فترة ليست قصيرة واحدا من البلدان في الشرق ذات الأديان والمذاهب والقوميات المتعددة. وهذه الظاهرة في الشرق ليست غريبة وخاصة في بلد مثل العراق شهد حضارات وامبراطوريات وممالك وخلفاء وسلاطين عدة. كل هذه المكونات للمجتمع العراقي تركت بصماتها وكانت دائما عامل غنى ثقافي وروحي واجتماعي وعمراني عندما أحسن العراقيون استعمالها واستخدامها والاستفادة منها. العراق أصبح جسد جامع لهذه المكونات مع احتفاظ كل منها ببعض خصوصياته. هذه الهوية الجامعة هي التي ميزت العراق عن غيره باعتباره بتنوع مكوناته وقبول بعضه للبعض الآخر، بل حتى استعداد بعضه للدفاع عن البعض الآخر أثناء الملمات والمحن، أو بروز حاجة للأمان وممارسة التماسك المشترك. ولم يذكر لنا التاريخ بتعاون مسيحي عراقي أو عربي واحد مع المسيحيين في الحروب الصليبية على سبيل المثال.

إن المرجعيات الدينية الشيعية في العراق أكدت على أهمية وضروة الاقتناع بأن الاعتراف والاحترام بالتنوع الديني والمذهبي والقومي في بلد مثل العراق يعتبر الطريق لتحقيق الأمن والاستقرار والسلام أولاً، وكذلك هي الأجواء الضرورية التي تسمح في تحقيق القيم التي دعا إليها الاسلام في التعايش وبناء مدينة فاضلة يعيش فيها الناس في سلام ومساواة. لذا فإن دعوات المرجعية الدينية العراقية اليوم تصب في هذا الطريق.

إن المرجعية الدينية في النجف تؤكد دائماً على التعايش السلمي وتدعو للابتعاد عما يثير الكراهية والبغضاء. فقد أكد ممثل السيد علي السيستاني، الشيخ عبد المهدي الكربلائي، في خطبة الجمعة ليوم ٢٠١٧/١٢/١، أهمية حفظ العلاقة الوطنية المشتركة والتعايش السلمي، داعياً للابتعاد عما يثير الكراهية، فيما حذر من أن تكفير الآخر وتأويل النصوص على غير ما هو المراد منها، هي أمور خطيرة أريقَت بسببها دماء كثيرة. وأن التعايش السلمي ضرورة يفرضها الواقع وينبغي معرفة كيفية التعامل مع التعددية بما يصون المجتمع.

وكانت المرجعية الدينية في النجف الأشرف دعت في وقت سابق، لتحقيق التعايش الاجتماعي والثقافي بين أهل الأديان والمذاهب، مؤكدة أن جميع ما جاءت به الشرائع السماوية، هو الدعوة الى السلام واشاعة روح المحبة لأنها تنبع من نفس المصدر الالهي.

إن المرجعية الدينية في النجف منذ تأسيسها غلبت الدور الاجتماعي في سلوكها على الدور السياسي. وكانت تعتبر نفسها كوجود ضمن هوية عراقية جامعة للمكونات الأثنية والدينية المختلفة. تعتبر المرجعية سلطة الشيعة وليست السلطة الحكومية. أعطت المرجعية هبة الى شيعة العراق حيث كان الملوك والرؤساء

يزورهم في النجف ولم نرى مرجعا زار الملوك او الرؤساء عدى صدام حسين الذي أراد أن يكسر هذا التقليد بإجبار السيد الخوئي بالقدوم الى قصره الجمهوري ولكن هذه كانت خطأ كبيرة تسجل عليه. أما الطائفة السنية فمرجعيتهم هي السلطة الحاكمة. وهذه الصورة مستمرة منذ تسعة قرون تقريبا. اليوم المعادلة اختلفت، لكن النسيج الاجتماعي العراقي يحتاج الى مرافقته بهدوء للتكيف على هذه الحالة الجديدة. الشيعة لا زالوا يعتبرون سلطتهم المرجعية الدينية، بينما المرجعية الدينية تؤكد وتطلب منهم ان يأخذوا دورهم ببناء سلطة دولة حديثة وان تكون المرجعية الدينية هي سلطتهم الروحية وليست السياسية، وسلطتهم السياسية هي الدولة ومؤسساتها. وهذا يحتاج الى وقت الا أن المرجعية تدرك بوضوح دورها بالحفاظ على النسيج الاجتماعي العراقي وعدم تمزقه. وبناء دولة مدنية حديثة وهذا أمر جدا معقد وخاصة في العراق. لقد أقصي العراقيون من فن بناء وقيادة وصيانة الدولة منذ أكثر من ٧ قرون خلال الحكم العثماني. اليوم المرجعية تريد من الشيعة ان يغيروا من سلوكهم بتعزيز مفهوم السلطة هي الدولة الحديثة، ومن السنة بان السلطة هي ليست فقه ديني بل مرجعية سياسية لكل العراقيين. لذلك لم تفرط المرجعية بوحدة النسيج الاجتماعي العراقي. السؤال الذي يطرحه العالم هو، من أين جاءت هذه النظرة الفلسفية للدولة ولعلاقة الانسان بالآخر للمرجعية الدينية في النجف الأشرف؟ هذا الدراسة سوف تكشف سر هذا السلوك الذي حير كثير من المهتمين بالفلسفة الدينية او علم الاجتماع الديني أو علم السياسة.

لقد اكتشف العالم بعد ٢٠٠٣، بان الشيعة هم الأكثرية السكانية في العراق. وقد أزيحوا من لعب دور سياسي وأقل منه روحيا وثقافيا منذ عدة قرون قد تطول الى عشرة قرون. وهذا الاقصاء يشمل كذلك تكوين الدولة العراقية

الحديثة في ١٩٢٠ والتي بنيت على اساس قومي وطائفي. توجه الشيعة نتيجة لذلك الى بناء روحي حر مستقل عن مؤسسة الدولة وقد ادى ذلك الى بروز حرية الاجتهاد وتعدد المراجع ثم تعدد المدارس كما كانت في أثينا حيث تكونت أكاديمية افلاطون وثانوية أرسطو. قاومت المرجعية الدينية الشيعية كل أنواع الاضطهاد وتحييد دورها وعدم امكانية ازالتها أو التقليل من شأنها، وذلك يعود الى تعدد المراجع ، أي تعدد الرؤوس. فبقت المرجعية الدينية الشيعية المؤسسة القانونية الوحيدة المستقلة عن الدولة حتى عام ٢٠٠٣، ولا زالت وستبقى

كذلك وجد العالم، المرجعية الشيعية في العراق لها تجربة اجتماعية كبيرة وأقل منها التجربة السياسية، لكنها تبقى تجربتها أكبر بكثير من السنة لأنه قد أصبح الفقه السني هو فقه الدولة. لذا عند سقوط الدولة العراقية في ٢٠٠٣، أحس السنة بالضيق والتهديد سياسيا واجتماعيا وروحيا. اقضاء الشيعة عن المشاركة في الحكم والوطن، فأصبح جمهور الشيعة هم الفقراء. لذلك أعطوا أهمية كبيرة للطقوس أي للدين المرئي والملموس. الدين الذي يعيشه الفقراء في حياتهم اليومية مثل عيد الفطر، عيد الأضحى، عاشوراء، المسيرات الحسينية، الحسينيات، المساجد، المدارس الدينية والأضرحة المقدسة. قد تكون هذه الشعائر نقطة خلاف بين المرجعيات الدينية، فقسم منهم يعطوا أهمية كبيرة للشعائر والطقوس ، بينما مرجعيات أخرى تعطي أهمية كبيرة للعقيدة والسياسة والفكر. بينما قسم آخر منهم قد أعطى توازن كبير بين الاثنين ومنهم السيد محسن الحكيم والسيد علي السيستاني.

لقد وجد العالم بأن الشيعة هم أفضل شريحة سياسية متقدمة في البناء السياسي وذلك نتيجة توجههم نحو الأحزاب السياسية مثل الحزب الشيوعي وحزب الدعوة

والأحزاب القومية ومنها حزب البعث حيث كانا الشيعة في قيادة قطر العراق في ١٩٦٣ يمثلون أكثر من تسعين بالمائة من القيادة القطرية لحزب البعث. فاكسبوا خبرة كبيرة في السياسة سواء كانت علمانية، أو اسلامية.

ورأى العالم الشيعة بعد ٢٠٠٣ قد عبروا عن حريتهم بطرق مختلفة:

فروحيا: ظهرت صور كبيرة لعلماء الدين والمراجع الشيعية في المدن والطرق. كذلك ظهور المسيرات الحسينية المليونية وحرية اداء الشعائر الحسينية في عاشوراء.

وسياسيا: تحويل مدينة صدام الثورة سابقا الى مدينة الصدر، وظهور حزب الدعوة والمجلس الأعلى وتكوين أحزاب وتجمعات شيعية مختلفة.

أما ثقافيا: ظهور ونشر الكتب التي منعت سابقا من النشر، مع حرية النشر والصحافة والرأي. كذلك عقد مؤتمرات وندوات وجمعيات على المستوى المحلي والاقليمي والعالمي.

النجف الأشرف هي مدينة بنيت حول ضريح الامام علي (عليه السلام). لذلك الحوزة العلمية في النجف لها بعد آخر لا تضاهيها حوزة علمية في العالم بالرغم كل ما يقال عنها بوجود تلك معرفي ومن جمود فكري ونمطية في الدروس، لكن تبقى حوزة النجف عندها خصوصية نابعة أولا من بعدها التاريخي، حيث يعود تاريخها الى ألف سنة تقريبا، وثانيا من بعدها المعرفي، النجف فيها أساطين الطائفة الشيعية، وثالثا من بعدها السياسي، الأدوار السياسية التي لعبتها مرجعية النجف أدوارا كبيرة جدا، لعبها الحنوبى، والسيد الحكيم، والسيد الخوئي، والسيد الصدر الأول والثاني، وأخيرا السيد السيستاني. ورابعها الجغرافي ووجود ضريح الامام علي (عليه السلام). وخامسا بعدها العراقي. أنا شخصا وجدت أن مرجعية

النجف تتميز عن غيرها من المرجعيات بالهوية العراقية التي تمتد جذورها الى أكثر من ٤٠٠٠ عام. وهذه الهوية هي التي تدفع النسيج الاجتماعي العراقي بأخذ هذه المسارات والمنحنيات. أي ممكن القول ان مرجعية النجف تحكمها خصوصيتان، هما خصوصية الزمان اي تاريخ وادي الرافدين والتاريخ الاسلامي، وخصوصية المكان فالنجف الأشرف المدينة التي بنيت حول ضريح الامام علي (ع)، وشخصية الامام علي(ع) زرعت منظومة من القيم الروحية والخلقية والسياسية في جسد مرجعية النجف وكأنها مدرسة طلابها المرجعية ومعلمها وحكيمها الامام علي (ع).

لم تختار المرجعية الدينية كربلاء الامام الحسين، ولا الكاظمية للكاظمين ولا سامراء العسكريين مكان ثابت للمرجعية مثلما اختارت النجف. السبب هو خصوصية الامام علي (ع). الامام علي (ع) كان يمثل الامامة والسياسة. امام وخليفة. يمثل الدين والدولة. الا انه قبل ان يكون خليفة، كان اماما ومرجعاً روحياً للمسلمين وكأنه المرجعية التقليدية الحالية. نزل عند رغبة الصحابة عندما فضلوا تأمير عثمان بن عفان عليه واحترم الخلافة والخليفة. لكن بعد موت عثمان بن عفان اجتمع الناس حوله لقيادته السياسية والروحية. وعندما اختلف الناس وطلبوا منه وقف الحرب والقبول بالتحكيم بعد معركة صفين، نرى الامام قد نزل عند رغبتهم السياسية. المرجعية الدينية في النجف التقليدية تلعب دور سياسي عندما يطلب الناس منهم لعبه. مثال، ثورة العشرين. أعلنت فتوى الجهاد ضد الغازي البريطاني لأن العشائر ثارت ورفضت الوجود البريطاني. كذلك فتوى السيد الحكيم ضد الشيوعية هي نتيجة لغزو ثقافي للعراق وفتواه ضد محاربة الكرد هي أيضا نتيجة الغزو العسكري لبغداد ضد الكرد. وفتوى السيد السيستاني

جاءت نتيجة الغزو العسكري لداعش. تميزت المرجعية بالفتوى اي بالدور السياسي عندما يكون هناك غزو للمجتمع العراقي.

الهدف من الدراسة:

إن الهدف من هذه الدراسة: هو الاجابة على عدة أسئلة قد وضعها الغرب مسبقا ومنها:
أولا: لماذا شيعة العراق لم يتخذوا نفس المسار في بناء دولة حديثة مثل شيعة ايران؟
ثانيا: سر عدم تغليب المرجعية، الوجود الشيعي على الهوية العراقية الثقافية؟
ثالثا: سر اعطاء المرجعية الدينية الحرية الكاملة للشعب العراقي في تقرير نوع الدولة التي ينبغي تأسيسها وقيادتها وصيانتها خاصة لنظام ديمقراطي يعطي شرعية للأكثرية في الحكم.

مناهج البحث المتبعة:

إن البحث العلمي في وقتنا الحاضر أصبح واحد من المجالات الهامة التي تجعل الدول تتطور بسرعة هائلة وتتغلب على معظم المشكلات التي تواجهها بطرق علمية حديثة ومتطورة والتي لا تعتمد فقط على النقل والتكرار بل على الاسلوب الذي يتوخى الحقيقة من ميدان الحياة اليومية وبالنتائج المادية الملموسة.
في العلوم الانسانية وفي منتصف القرن العشرين وجد العلماء بأن النهج الاستنباطي لا يكفي لكشف بعض الأسرار وهي قاصرة على أن تكشف الحقيقة. فحدثت أيضا طفرة وهي ايجاد وسيلة جديدة في تفسير الظواهر التاريخية والانسانية ضمن المنهج الاستنباطي وهي الجينياالوجيا مع علم الاجتماع الديني.

وهذه الوسيلة للبحث استوحيت من فلسفة نيتشة وخاصة من كتابه جينيلوجيا الاخلاق في عام ١٨٨٧ هذه الوسيلة البحثية تسمح للفلسفة أن تلتقي بالتاريخ، وهو عدم القفز على الواقع من خلال انشاء مفاهيم مجردة تولد عالم ينوب عن العالم

الحقيقي. أي هي تأريخ الحقيقة وليست حقيقة التاريخ، ودين الحقيقة وليس حقيقة الدين، ودين التاريخ وليس تأريخ الدين. أي الأحداث التاريخية تجد تفسيرها الحقيقي في تحديد طبيعة الحقيقة.

الجواب على السؤال الأول:

لم ابحث في هذا المبحث عن تاريخ المرجعية الدينية الشيعية، ولا عن وصفها ومفهومها عند الشيعة ولا عن تنظيمها وادارتها، بل ابحث في هذا المجال كمستشرق من أصل عراقي يعيش منذ ٤١ سنة في فرنسا بدون انقطاع. وحتى كلمة مستشرق لن تنطبق علي لأنني لست غريب اليدين والوجه واللسان عن العراق. مهما كانت التسميات، فالذي يهمني هنا هو الاجابة على تساؤلات تشغل الاوربيين هي، لماذا لم يسلك شيعة العراق نفس سلوك شيعة ايران في بناء الدولة الحديثة؟

إن فلسفة الغرب منذ زمن افلاطون حتى يومنا هذا بنيت على كيفية بناء وصيانة وقيادة دولة فاضلة يعيش فيها الناس بسلام وعدل ومساواة. ويعتبر القرن العشرين هو القرن الذي حدث فيه اكبر ثورة فلسفية في بناء الدولة (١). لذلك المستشرقين ورجال الفكر والصحافة يهتمون بهذا السؤال المركزي لهم. لقد اهتم المستشرقون في البدء في عموميات الاسلام او بالأحرى الاسلام السني وما كتبوه عن الفرق الأخرى، وهي صورة قد شابتها الكثير من العموميات المفرطة والمغالطات التاريخية (٢)، ثم بدأ بعد ذلك تحول كبير في تلك الدراسات، وتقديم رؤية جديدة، وربما يكون العامل المحفز في هذا مرتبط بالثورة الاسلامية في ايران في ١٩٧٩م، وبعد سقوط نظام الحكم في العراق في ٢٠٠٣م.

عندما نتكلم عن المرجعية الدينية الشيعية العراقية في النجف، فنحصل على ثلاث متغيرات هي، شيعية، عراقية ونجفية. بينما عندما نريد ان نقارنها مع

المرجعية الشيعية الايرانية في قم ، نلاحظ ايضا ثلاث متغيرات الا ان هناك متغيرين غير متشابهين هما ايران وقم. من هنا يمكن فك طلاسم السؤال الذي طرحناه في البداية وهو لماذا شيعة العراق لم يسلكوا نفس سلوك شيعة ايران في بناء دولة حديثة؟.

نحن هنا لم نأخذ مسألة تعدد المرجعيات كظاهرة صراع بالمعنى الحاد. إن تعدد المرجعيات في التاريخ الاسلامي الشيعي يمثل تقليدا لانها تعتمد على اساس الكفاءة العلمية والاستقامة الخلقية. وكذلك صحيح ان كل مرجعية تدرس الامور حسب الظروف التي تحيط بها وبحسب امكانياتها وقدراتها الذاتية في تلك البقعة (٣)، لكن هذا لا يمنع من وجود فرق بين شيعة ايران وشيعة العراق ناتج من تاريخ العراق وثقافة العراق وهوية العراق. قد يكون هناك تشابه او تقارب بين الوعي الجمعي الشيعي العراقي مع الوعي الجمعي الشيعي الايراني، الا انه هناك فرق واسع بين اللاوعي الجمعي الشيعي العراقي منه من الايراني.

السؤال الذي يطرح اليوم: هل السلوك الفردي والجمعي للعراقيين له علاقة بسلوك وموقف المرجعية الدينية الشيعية في العراق؟

اذا كان الجواب بنعم، فإلى أي حد ممكن للإرث الثقافي والتاريخي يلعب دورا؟ وهل ممكن ايجاد نظرية تفسر لنا هذا السلوك الذي يتميز به العراقيين عن غيرهم بدرجات متفاوتة؟.

هناك ظواهر اجتماعية حدثت مؤخرا في العراق قد وضعت المهتمين في العلوم الانسانية والسياسية أمام أسئلة كثيرة وخاصة ما يتعلق بالمرجعية الدينية الشيعية في النجف الأشرف. هل المرجع أي الفرد له تأثير على حركة بوصلة وسير

ودور المرجعية في الحياة الاجتماعية، ام أن هناك قوى أخرى خارج ارادة الفرد نابعة

من العمق التاريخي لتأسيس المرجعية وللمكان الذي ولدت ونمت فيه ؟

لو تفحصنا المشهد العراقي الحديث نرى ان المشاهد الشرقي والغربي يرى بأن شيعة العراق ليسوا بيد المرجعيات الدينية، ولا بيد المرجعيات السياسية، ولا بيد المرجعيات القبلية، بل هي بيد السيد السيستاني. ومن الأمثلة على ذلك:

أولاً: عندما وصلت داعش على حدود العاصمة بغداد ومدينة كربلاء المقدسة، وعجزت كل المرجعيات التقليدية العراقية سواء الدينية والقبلية والسياسية لصدها، أطلق السيد السيستاني الفتوى الشهيرة التي سميت بفتوى الجهاد الكفائي (٤).

ثانياً: في رمضان للعام الماضي، معظم المراجع أعلنوا يوم العيد ومنهم الجمهورية الاسلامية في ايران ومعظم الدول العربية والاسلامية، لكن السيد السيستاني في وقتها لن يعلن العيد. استجاب معظم العراقيين للسيد السيستاني وكتب احد الصحفيين مقالاً قال فيه، اذا صام السيستاني صام العراق (٥).

ثالثاً: في الدورة الأخيرة للانتخابات لم تعطي المرجعية الدينية في النجف رأياً وتركت الشعب العراقي هو الذي يختار الأصلح والذي لم تتلوث يده بالفساد (٦). فترجم معظم أفراد الشعب العراقي هذا الموقف من المرجعية بالحيرة وانعدام الثقة بالطبقة السياسية. لذا فإن نتائج الانتخابات كانت غير مشرفة حيث لم يذهب لصناديق الاقتراع أكثر من خمس الشعب العراقي.

هذه الأمثلة تعطي مؤشرات واضحة بقدرة السيد السيستاني الفردية بسيطرته وتحريك المجتمع العراقي بالاتجاه الذي يريده. ولكن من الناحية العلمية الأكاديمية صعب قبول هذه الفرضية وكأنما الفرد في المرجعية هو صانع الأحداث

وليست المرجعية ككيان اجتماعي تحكمه البيئة والتاريخ والمكان الذي تعيش فيه. ولتوضيح هذه النقطة نقول :

إن العديد من الباحثين يدرك الآن ان التاريخ يوجد في جسد الانسان وينعكس من خلال ممارساته اليومية. فالجسد بالنسبة لعلماء الانثروبولوجيا ليس فقط كأداة للمعرفة وانما طريقة للتذكر. ويؤكد " بول كونيرتون " في كتابه " كيف تتذكر المجتمعات " يقول بأن كل الممارسات والعادات المشتركة تنتقل عبر الجسد وتعمل الممارسات الجسدية على خلق الذاكرة الثقافية وتنشيطها (٧). ويعتبر الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، يعتبر الجسد " كوثيقة تاريخية " باعتباره مخزناً لذاكرة المجتمع ومستودع لخبراته التاريخية، ولذلك ابتكر منهجين في البحث العلمي هما منهج الاركيولوجيا والجينالوجيا وأخذ الأخير من الفيلسوف الألماني نيتشة وهي " جينالوجيا الأخلاق " (٨). وعن طريق هذين المنهجين يمكن تحليل خطاب، الفرد، السلطة والمعرفة. فلمعرفة سلوكيات السلطة والفرد والمعرفة المنتجة، يفترض علينا القيام بالتشريح السياسي للجسد، والبايولوجي للسياسة الاجتماعية للسكان. قوة الجسد حسب فوكو هو ناتج من هذين القطبين. ويعزز هذا الرأي العالم الاجتماعي الفرنسي الكبير بورديو حيث يقول، ان عادات الجسد تمثل بمعنى ما " ذاكرة الجسد " التي تتبلور من خلال التفاعل العملي بين الجسد والبيئة المحيطة به. وهذه الأجساد البشرية هي تاريخ يمشي على الأرض، يذكر الفاعلين المعاصرين بما أنجزه السابقون من أعمال وبما ارتكبه من أخطاء، وهي وسيلة الاتصال بين الماضي والحاضر (٩).

لتفسير الحاضر، وعندما يكون من الصعب فك رموز كثيرة مرتبطة بالسلوك الفردي والجمعي للمجتمع، حينها نضطر اللجوء الى الماضي والتاريخ لتوضيح

الحاضر. وليست دراسة الماضي للماضي بل هو لأجل حل رموز الحاضر. لذا لفك رموز سلوكية الفرد العراقي اضطرت اللجوء للماضي اي للارث التاريخي والثقافي لوادي الرافدين. لكن اللجوء للماضي فيه محاذير. لأن هناك قراءات مختلفة للماضي. هذه القراءات بنيت على مناهج قديمة وليست حديثة. مناهج تقرأ حقيقة التاريخ وليس تأريخ الحقيقة. تقرأ حقيقة الدين وليس دين الحقيقة. تقرأ تأريخ الدين وليس دين التاريخ. المناهج الحديثة تفك هيمنة التاريخ على العقل البشري (١٠).

بماذا يتميز العراقي عن الآخرين؟. يتميز بامتلاكه تاريخ خاص به. العراق يملك نموذج خاص للحضارة نابع من عمقه الثقافي والتاريخي. هذا التاريخ يخفي رموز ومفاتيح خاصة به. المحرك الأساسي في تأريخ العراق منذ السومريين ليومنا هذا هو عملية تصادم الخارجي مع المحلي، الخارجي مع الداخلي يولد ظاهرة الهدم والبناء. ثقافات تنبع من الخارج وتصب في العراق مما تولد جيلا جديدا له رموز ومعاني جديدة. وهذه الرموز خارجة من اللاوعي الجماعي. آلية الشعور أو اللاوعي العراقي تحتوي على عالم من الرموز المتعددة الدلالات وأن المألوف في دلالة الرمز اللاشعوري أن يأتي الشيء في صورة نقيضه أو ضده للتمويه على الرقيب الشعوري (١١). وهذا مما جعل العراق ساحة للصراعات الخارجية.

لماذا يسمح العراقيون بذلك؟ العراق يعلن ضد التدخل الخارجي ويحتج ويقاوم ولكن في الحقيقة اللاشعور هو الذي يرحب بذلك لأنه يعرف هذا التصادم يولد هدم القيم القديمة ومن ثم بناء قيم جديدة بها يبزغ العراق وهذا سبب تميزه عن الآخرين، وهنا نتعرض لبعض الأمثلة:

المثال الأول: هو ما حصل في أواسط القرن السابع ميلادي، حيث خرجت الجيوش العربية الاسلامية من شبه جزيرة العرب وأسقطت الامبراطورية الساسانية الفارسية التي

كانت تهيم على العراق. وجدت هذه الجيوش أمامها حوالي سبعة ملايين من السكان أغلبيتهم الساحقة من المسيحيين (النساطرة) مع أقليات من الصابئة واليهود والمناوية، بالإضافة الى بعض المجوس. كانت لغة هؤلاء هي السريانية (الآرامية) العراقية (١٢). هدمت هذه الجيوش اللغة واستبدلت باللغة العربية، إضافة الى تغيير الدين المسيحي الى الدين الاسلامي. أصبح العراقيون من أكثر الشعوب في العالم التي تبنت العربية حرفاً وكتابة واستعربت أسرع من غيرها ليس بسبب التجاور مع شبه الجزيرة العربية بل لأن العراق هويته ثقافية ويعطي أفضلية لكل ما هو جديد ونافع على القديم. الجديد هو العربية، والقديم هي السريانية. الجديد هو الاسلام، والقديم هي المسيحية. أي أن العراقي يعطي للعالمية (الخارج) أولوية الاختيار على المحلية (الداخل).

إن التبني السريع للعربية سمح لهم منذ بداية الفتح أن يشاركوا بصورة فعالة في صنع الحضارة الاسلامية، بل أن العراقيين هم من وضع للغة العربية نحوها وبلاغتها وتنقيطها وحركاتها وسكونها من خلال ميراث الحرف البابلي واللغة السريانية، ثم برزت في هذا المجال مدرستي الكوفة والبصرة. أما استبدالهم الدين المسيحي بالدين الاسلامي، أصبح العراقيون رواد المدارس والمذاهب الدينية. هذا المثال يعبر بشكل واضح عن نظرية الهدم ثم البناء. هدمت في العراق قيم وأعراف ورموز ودلالات قديمة بغيرها جديدة. بعد توقف قليل خلال حكم السلالة الأموية، وبعد أن اتخذوا دمشق عاصمة لهم بدلا عن الكوفة.

المثال الثاني: بعد أقل من ثمانين عاما، فتح العراقيون ابوابهم نحو جيوش أبي مسلم الخراساني القادمة من بلاد فارس لإسقاط الحكم الأموي وإعادة تجربة التلاحق الخارجي الداخلي وأصبحت بغداد حاضرة العالم ومنازلها مازجين المحلي هو اراث أكد

وسومر وبابل حمورابي وآشور الذي ورثوه من أسلافهم في نينوى وبابل وسومر، مع الخارجي العالمي الفارسي والاعريقي والهندي والمصري والشامي واصبحت بغداد مدينة عالمية.

المثال الثالث: تأسيس الدولة العراقية الحديثة. أكبر عملية هدم للقيم القديمة وبناء قيم حضرية جديدة حصلت في بداية القرن العشرين بعد غزو واحتلال بريطانيا للعراق. ثورة العشرين ماهي الا تصادم الخارج (بريطانيا) مع الداخل (الشعب العراقي) والذي ولد العراق الحديث. هذا التصادم في مبتداه هدم عالم الامبراطوريات والخلفاء والسلاطين والأمراء وعالم الولايات (البصرة، بغداد والموصل) الى عالم الدولة المركزية الحديثة وعاصمتها هي قلب التاريخ الذي عمره أكثر من ٦٠٠٠ عام وهي بغداد، بغداد العباسي (١٣). ويؤكد الباحث فالح عبد الجبار، أن تأسيس الدولة العراقية الحديثة أضعف عالم الرعايا والهويات القبلية والطائفية وأزيل أهل الذم (١٤).

المثال الرابع: هو الاحتلال الأمريكي للعراق في ٢٠٠٣ م وهذا التصادم أدى الى انتهاء الدولة المركزية الدكتاتورية ووضع العراقيون أول دستور دائم منذ ١٩٥٨ م. وأصبح تناول للسلطة بصورة سلمية.

في المثالين السابقين أي في ١٩٢٠ في ٢٠٠٣ نرى ولادة دور بارز للمرجعية الدينية الشيعية على الصعيد القطري والعالمي. وبعد ٢٠٠٣ م تعد المرجعية الدينية صمام أمان ليس فقط محلي واقليمي بل عالمي للسلام في المنطقة. هذه الفرضية توضح تفسر جيدا خصوصية العراق ومنه ولدت خصوصية المرجعية الدينية في النجف الأشرف.

يمكن القول هنا أن العراق يحصل فيه بناء كبير عندما يكون هناك تصادم عنيف بين الخارج والداخل كما حصل في العصر الاسلامي الأول والعصر العباسي وأخيرا وجدت هذا التناقض ليس سببه صراع بين قيم البداوة وقيم الحضارة بل هذه الازدواجية ناتجة من اللاوعي الجمعي التي جذورها تمتد الى أكثر من ٦٠٠٠ عام ويعود بالدرجة الأولى الى هوية العراق التي هي ناتج ثقافي أكثر مما يكون حربي. هويته ناتجة من التصادم بين الخارج (عالمي) مع الداخل (محلي) والذي يولد من هذا التصادم (الهدم) بناء جديدا مميزا (١٥).

الجواب على السؤال الثاني:

ونجده في العلاقة بين الهوية والوجود: إن دور المرجعية في العراق دور اجتماعي وليس سياسي. وبما ان المجتمع العراقي متعدد المذاهب والأديان، المسلم، المسيحي، اليهودي، الصابئي، الايزدي، الشيعي والسني، فالمذهبية لا توحدهم بل تكسر النسيج الاجتماعي، على خلاف ايران، متعدد الاعراق، العربي، الكردي، الفارسي، التركي، البلوش، فالمذهبية او التشيع يوحد هذا النسيج. لذلك المرجعية في النجف حاولت دائما ان لا يطغى الوجود على الهوية العراقية الأصيلة وهي الهوية الثقافية. وما فتوى السيد محسن الحكيم بتحريم محاربة المكون والوجود الكردي في العراق، وقول السيد السيستاني أخواننا السنة هم أنفسنا، ما هي الادالة وتأكيد على أن المرجعية الدينية الشيعية لا تسمح بتغليب الوجود العربي أو الطائفي على الهوية العراقية الجامعة لكل المكونات. الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك كان دائما ينصح حكومته عندما تقرر عمل اصلاح اجتماعي أو سياسي، كان ينصحهم ويقول لهم اياكم وتهزوا أو تمزقوا النسيج الاجتماعي الفرنسي. الرئيس الفرنسي الحالي ماكرون أراد أن يقوم بالإصلاح رغم معارضة النسيج الاجتماعي

له، فحصل ان الشعب الفرنسي انقسم على نفسه فتراجع عن اصلاحاته للحفاظ وعلى وحدة النسيج الاجتماعي الفرنسي.

الحلم الذي كان وما يزال يراود الانسانية هو ، كيفية بناء مدينة فاضلة يعيش فيها الناس باختلاف اجناسهم ومعتقداتهم وأعمارهم بعز وأمان وسلام. أي وجودات مختلفة ضمن هوية جامعة للجميع. أربع شعوب أكثر من أربعة قرون حكموا العالم وبنوا المدنية والحداثة الحالية ونظام الحياة العصرية من الكهرباء والطائرة والتلفون والثلاجة وكل ما نستخدمه في الحياة اليومية. هذه الشعوب هم: الشعب الانكليزي سواء بريطاني او امريكي، والشعب الجيرماني وهم الالمان، والشعب الفرنسي والشعب الروسي (١٦). الذي حدث هونشوب حروب طاحنة بينهم مما أدى الى قتل أكثر من ١٠٠ مليون إنسان خلال قرنين مع تدمير مدن. أرادت هذه الشعوب أن تجد مفتاحا يجد حل لكل مشاكلها. فعملوا في فرنسا وألمانيا عام ١٩٠٥ مدرسة الحوليات أو ما تسمى بالمدرسة الوثائقية دعوا كل الاختصاصات لبحث جذور المشكلة ووجدوا باستخدام طريقة البحث التي تسمى بالجينياالوجيا، وجدوا المفتاح السحري وهو الهوية والوجود. تذوب الأوطان وتدمر البلدان ويهاجر الولدان وتنشأ الحروب عندما تختزل الهوية الى انتماء أو وجود واحد. حينها يصبح الوجود والانتماء هوية وتلغي كل الوجودات الأخرى يتحول في حينها الانسان والمجتمع الى العزلة والمذهبية والعنصرية ويبرز روح التغالب وبعض الاحيان تصبح هوية انتحارية. مثال على ذلك:

الحرب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا والتي دامت أكثر من ٣٠ عاما من ١٦١٨ الى ١٦٤٨. هذه الحرب الأهلية اندلعت عندما أراد الوجود الكاثوليك يعتبر نفسه هوية فرنسا وليس وجودا فيها مما حاول الغاء الوجود البروتستانتي.

اندلعت حرب أهلية مما سهل تدخل القوى الخارجية من بريطانيا بدعمها للبروتستانت واسبانيا بدعمها للكاثوليك. واستمرار هذه الحرب أدى الى احتلال جزء من فرنسا من قبل بريطاني واسبانيا (١٧).

(ب) ألمانيا الهتلرية عندما غلبت الوجود الأري وجعلته هوية ألمانيا مما أدى الى حرب أهلية ثم اندلاع حرب عالمية ثانية أخيرا احتلال ألمانيا من قبل الحلفاء.

(ج) لبنان: عندما تغلب الوجود المسيحي واضعف الوجود الاسلامي الشيعي، أدى الى حرب أهلية ومن ثم الى احتلال لبنان.

(د) العراق: عندما تغلب الوجود العربي السني واضعف الوجود الكردي والشيعي أدى الى حرب أهلية ثم بعدها الى حرب مع الجوار وأخيرا احتلال العراق من قبل أمريكا. كلما تعدد وتنوع الوجود كلما أغتنت وقاومت الهوية. الوجود الاسلامي الشيعي في لبنان هو الذي أنقذ لبنان من الانهيار ككيان، وكذلك الوجود الاسلامي الشيعي والكردي في العراق هما اللذان أنقذا العراق من الذوبان.

جواب السؤال الثالث:

نجد الجواب يأتي من خصوصية المكان: المكان هو النجف. مدينة بنيت حول قبر رجل له منزلة كبيرة في التاريخ الاسلامي وهو الامام علي (ع). المتخصصون في علم اجتماع الأديان ينبهون أمام مرجعية النجف اليوم التي تنادي وتطالب وتدعم دولة مدنية محكومة بنظام ديمقراطي تحصر السلاح بيد الدولة وتدفع باتجاه عراق خال من التدخلات الخارجية وتضمن اطار مؤسساتي ودستوري والشعب العراقي هو الفيصل في تقرير نوع الحكومة، اي الشرعية تعود الى العراقيين مهما كانت خياراتهم. هل اللاوعي الجمعي الايراني هو الذي دفع الجمهورية الاسلامية بتبني نظرية الفارابي بالحكم والتي هي نظرية مشابهة لنظرية افلاطون بشرعية

الحكماء والعلماء بحكم المدينة الفاضلة، بينما اللاوعي الجمعي العراقي اتبع نظرية ارسطو في الحكم بشرعية الناس بالحكم وليست النخبة؟ انا شخصيا اعزيه الى الامام علي (ع) وليس الى ارسطو. الحرية في مفهوم الامام علي (ع) ، قيمة مقدسة لا تعلوها قيمة أخرى. وقد تبنت المرجعية الشيعية في النجف هذه القيمة كقيمة أساسية في مسيرتها الفكرية والميدانية في العراق، بينما هذه القيمة في الشرق لم تكن من أولويات منظومة القيم في بناء دولة مدنية حديثة.

حرية الرأي في الغرب تعني ان لا يدعوا الى قتل الآخرين ولا الى العنف او الاقصاء والكرهية. بينما الحرية في الشرق تدعوا الى العنف والاقصاء. لماذا؟

في الغرب سابقا الدين حرق العلم. الخطاب الديني ضد الخطاب العلمي. مثال محاولة حرق العالم الفيزيائي غاليليو مجرد قوله بأن الأرض تدور حول الشمس. والفلسفة ألغت الدين وشكت فيه . والدولة ضربت الاثنين أي الدين والفلسفة ، وهو قتل سقراط.

منذ أكثر من قرن، تصالحت الدولة مع الدين والفلسفة، وتصالح الدين مع العلم، وتصالح العلم مع الدولة. منها نتجت الحرية كنتيجة للتصالح. اما في الشرق لم تولد الحرية لا من الدين ولا من الدولة ولا من الفلسفة. اذن من أين ولد مفهوم الحرية عند المرجعية في النجف والتي أدهشت المهتمين بعلم السياسة والأجتماع والفلسفة؟

الجواب نجده عند الامام علي (ع). كيف نشأت هذه الفرضية؟ فلنتكلم قليلا عن الامام علي (ع) ولكن من خلال قراءة حديثة مبنية على مناهج حديثة ومنها الجيولوجيا التي تساعدنا على توضيح هذه الفكرة الأساسية في فهم مرجعية العراق وايجاد المفتاح الذي يفسر كل تصرفاتها الفكرية والميدانية.

كتب العديد من المفكرين والمؤرخين والكتاب والشعراء والفلاسفة والباحثين بمختلف لغاتهم وهوياتهم وانتماءاتهم الفكرية والدينية عن الامام علي أمثال طه

حسين (١٨) ، عباس محمود العقاد (١٩) ، عبد الرحمن الشرقاوي (٢٠) ، جورج جرداق (٢١) ، وراجي أنور هيفا ، وسليمان كتاني ، وغيرهم (٢٢) ، كتبوا عن سيرة وشخصية وفلسفة وحكمة وسياسة الامام علي ، كل من زاوية أو مدخل. ورغم دراستي الدكتوراه وبحثي عن الامام علي بعنوان " علي بن أبي طالب امام وخليفة " والذي أعد في جامعة بوردو في فرنسا ، والذي أستند بصورة رئيسية على كتاب نهج البلاغة وهو مجموع ما أختاره الشريف الرضي من كلام وحكم الامام علي وقام بشرحه كل من بن أبي الحديد المعتزلي وابن ميثم البحراني والشيخ محمد عبده وصبحي الصالح وغيرهم ، ألا أني وجدت أن هناك قضية مهمة لم يجري بحثها بشكل كاف ودقيق أو يحاط بكل جوانبها ألا وهي: (فلسفة الامام علي للإنسان والحياة).

نظرة الامام علي للإنسان والحياة واضحة المعالم ، متجانسة ومتكاملة الابعاد في سياق يمسك بقاعدتين فكريتين ، دينية ودنيوية. (أعمل لدنياك كأنك تعيش أبد وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) (٢٣)

قد تبدو للبعض متناقضتين ولكن خلال تفحص فكر الامام علي نستطيع أن نجد أن هناك امكانية واضحة للتعايش بين هاتين القاعدتين ، لفهم حياة وسلوك الانسان وآفاق تطوره وتطور المجتمعات المرافقة له. أنها فلسفة في الحياة تفاعلية ، ملتزمة بقاعدة التطور الانساني مع أفق واسع من الحرية الشخصية. كان الامام يشدد أن التغير والتطور الايجابي لحياة الانسان تخضع لضوابط يجب احترامها.

هذه النظرة الفلسفية العميقة للإنسان والحياة جعلت من بن أبي طالب عليا وسرا الأسرار ، ومشرق الأنوار ، وسر الأنبياء والمرسلين ، وسيد الأوصياء والصديقين ، والظاهر البرهان والباطن بالقدر والشأن. بهذه النظرة أصبح الامام علي سيد القوم ،

محب الشهود ، ومحبوب المعبود ، باب مدينة العلم ، ورأس المخاطبات ومستنبط
الاشارات ، ورؤية المهتدين وزين العارفين ، وامام السائرين والعاقلين ، وأعظمهم حلما
وأكثرهم علما

السؤال الذي يطرح وهو : كيف اجتمعت كل الخصال الحميدة ، والقيم المجيدة ،
ومحاسن الأفعال ، وكمال الخصال ، في رجل واحد أسمه علي بن أبي طالب؟
لماذا لم تجتمع ولو أعشارها في رجل لا من قبله ولا في عصره ولا من بعده؟ هل لأنه
كان يؤمن بالله الأحد القهار؟. الجواب لا. لأنه كان قبل الامام علي وحينه أناس
يؤمنون بالله الواحد من اليهود والنصارى والمسلمين ، وقسم منهم استشهدوا بسبب
عقيدتهم.

كان من أولئك الذين عاصروا رسول الله (ص) ولازمه فترة طويلة؟. الجواب لا. لأنه
كان هناك من عاصروا وعاشوا النبي (ص) أكثر فترة من الامام علي.
كان ممن صاهر رسول الله (ص)؟. الجواب لا. لان كان هناك من صاهر رسول الله
مرتين

كان من أشجع بني قومه؟. الجواب وأن كان أشجعهم. لكن تم تجتمع في أقل
شجاعة منه أعشار مما اجتمعت عند الامام علي.

إذا كانت لا، القرابة والصحبة والمصاهرة والمعايشة مع رسول الله (ص)، ولا الايمان
بالله الواحد القهار، ولا الكرم والتقوى والزهد هي الوحيدة والكافية التي جعلت من
بن أبي طالب أن يكون عليا وسرا إلهيا، اذن ياترى ما هو هذا اللغز والسر العجيب؟
الرجال الذين تركوا بصماتهم في مسيرة التاريخ الانساني ، بنوا جل أفكارهم على
نقطة بداية. وعلى ضوئها بنوا صرحا من العلوم والمعرفة. مثال على ذلك:

كارل ماركس: وجد المفتاح الرئيسي الذي به يفسر التاريخ وهي نظرية "الصراع الطبقي" (٢٤).

دارون: الحياة نشأت من أصل واحد، ومنها وضع نظرية "أصل الأنواع" (٢٥).
 أينشتاين: أراد أن يعرف أول معادلة رياضية على أساسها بني الكون، فوجد
 "النظرية النسبية" (٢٦).

هويل وغيره وجدوا نقطة بداية الكون، ومنها نظرية "البيك بونك" (٢٧).
 نيتشة: بنى نظريته الفلسفية على أنه المحرك الأساسي للانسان هو "حب امتلاك
 القوة" (٢٨).

الاديان التوحيدية نقطة الانطلاق لها هي "التوحيد الالهي".
 السؤال هو: ما هي نقطة الابتداء للامام علي والذي بنى على ضوءها جل نظريته
 وفلسفته للانسان والحياة؟ هذه النقطة لا يمكن معرفتها الا من خلال شيء تفرد به
 الامام علي عن عامة الناس قاطبة. لم يشاركه أحد لا من قبله ولا في حينه.
 تفرد الامام علي دون سائر الناس جميعا في ما يتعلق بوصفه الدقيق والعميق لخلق
 الكون، والملائكة، والانسان، والطاووس، والخفاش، والنملة، والجراد. وصفها
 وكأنه عالم من علماء الحيوان والحشرات والفيزياء والبايولوجي. ومن اقواله:
 وصف خلق الكون: (أمال الأشياء لأوقاتها. محيطا بحدودها وانتهاءها، عالما بها قبل
 ابتداءها وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره) (٢٩).

وصف الملائكة: (عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، عصمهم
 من ريب الشبهات. فما منهم زائع عن سبيل مرضاته) (٣٠).

وصف خلق الطير: (أسكنها أخاديد الأرض وخروق الجبال.... فالطير مسخرة لأمره
) (٣١).

وصف خلق الانسان : (جمع سبحانه من حزن الأرض وسبخها تربة.....فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول أجملها حتى استمسكت ثم نفخ فيها من روحه فتمثلت أنسانا ذات أذهان يجبلها. وفكر يتصرف بها وأدوات يقلبها ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل) (٣٢).

هل أراد الامام علي من هذه الأوصاف الدقيقة أن يرينا جميل صنع الباري ، وقدرته وعظمته ودقة صنعه ؟ إذا كان هذا هو السبب ، أولم يكفي وصف اثنين أ ثلاثة من هذه المكونات الكونية لكي تصل رسالته الى العالم ؟ الجواب هو ليس هذا السبب الرئيسي. إذن ماذا أراد الامام علي بالذات من هذه الأوصاف الدقيقة؟.

أراد الامام علي أن يقول أن الله خلق عالمين. الاول عالم غير الانسان وهو عالم الملائكة والشجر والحجر والطير والحيوان وكل الحيوانات الأخرى. صفات خلق هذا العالم أنه عالم مسير لامخير. لم يملك حق الاختيار. أنه مبرمج مسبقا. ولذا يقول : (، أمرها أن تقف مستسلمة لأمره. فما منهم زافع عن سبيل مرضاته. مسخرة لأمره. (أما العالم الثاني ، وهو عالم الانسان : عالم يملك حرية الاختيار ، لم يكن مبرمج مسبقا ، ولذا يقول يفرق بها بين الحق والباطل).

ماذا نستنتج من هذين التصنيفين ؟ ماذا كان يدور في ذهن وفكر الامام علي ؟ وكأنه أراد الامام علي أن يقول أن الحرية هي الفيصل بين العالمين. الانسان هو الكائن الكوني الوحيد الذي يمتلك الحرية. أنها هبة من الله لا يعطيها لغيره. أنها مقدسة. فقد هذه الحرية ، هو الانتقال من عالم الانسان الى عالم الحيوان. وسلب هذه الحرية هي الاعتداء على أكبر الحرمات المقدسة. ولذا يقول : (لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فأنهم مخلوقين لزمان غير زمانكم) (٣٣). وعلى ضوء هذه النقطة بنى الامام علي جل أفكاره ، ومنها نستطيع أن نفسر مجمل تصرفاته.

مثال: في حرب صفين : عندما أوشك جيش الامام أن ينتصر على معسكر معاوية ، وخذعة التحكيم التي وقع في فخها فريق الامام علي ، وبالرغم من تحذيره لهم ، إلا أن الأكثرية أرادة وقف الحرب. وكان الامام يعلم أن النزول عند رغبة الأكثرية سوف يضع أهم تجربة انسانية مقدسة في مهب الريح. احترامه لهذا المقدس الذي به تميز عالم الانسان من عالم الحيوان ، فقال لهم : (وليس علي أن أحملكم على ما تكرهون) (٣٤) . وقوله : (أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق) (٣٥) ، يريد أن يقول : أن العامل الموحد لكم هو امتلاك الاثنين صفة الحرية. الاثنان ورثوا نفس الارث المقدس.

فلنذهب بعيدا في فكر الامام علي. ماذا كان يتحسس في قلبه وعقله لهذين العالمين ؟

الامام علي يرى العالم غير الانساني وهو عالم الحيوان ، عالم ذو طبع ثابت. الثعلب يبقى ماكرا منذ ملايين السنين. الأسد يبقى وحشا والكلب يبقى كلبا. أي أن هذا العالم يكرر ما عمله آباءه منذ ملايين السنين. لذا هذا العالم لا تأريخ له . لأن حياته بنيت على التكرار.

هذا العالم غير الانساني ، لا مكان فيه للضعيف. شريعة القوي يأكل الضعيف.. هذا العالم لا يتكلم. هزة أرضية أو بركان أو عاصفة أو الأسد عندما يهجم على فريسته، لا تنبيه ولا تحذير.

أما العالم الثاني ، وهو عالم الانسان ، عالم لا طبع له. تجد أخوة من نفس البيت كل يبني حياته بطريقة تختلف عن الآخر. لذلك للإنسان تأريخ. وهذا يفسر قول الامام (لا تقسروا أولادكم) أي. (العالم الانساني ، عالم يحمي القوي فيه الضعيف. حماية الفقير والمحتاج واليتامى والمساكين والأرامل والكهول.

هذا العالم يتكلم. أي يحذر وينبه ويصحح.

الامام علي كان يحذر الناس من الانتقال من عالمهم الى العالم الحيواني. رغم الضغوط التي كان يعاني منها ، لم تزعزعه قيد أنملة من عالمه الانساني. الامام علي كان انسانا كاملا بمعنى الكلمة. ولذا كان يقول : (أحذركم من الدنيا فأنها منزل قلعة - أي ليست مستوطنته وليست بدار نجعة - أي محط رحال ومنتجع. كم واثق بها فجعته وذي طمأنينة اليها قد صرعته. أفهذه الدنيا تأثرون أم اليها تطمئنون أم عليها تحرصون. ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب وموفورها منكوب وجارها محروب) (٣٦).

اما ما يخص الديمقراطية وشرعية حكم الأكثرية، أيضا ورثتها المرجعية الدينية الشيعية من الامام علي (ع). تغليب رأي الأكثرية واحترام الأقلية اعتبرها الامام علي (ع) كقاعدة للتعايش وضمان وحدة الأمة بقوله (ألزموا السواد الأعظم، ان يد الله مع الجماعة). بدون هذه القاعدة لا يمكن بناء حوار مع الآخر. مبدأ احترام الأكثرية (العامة) من قبل الأقلية (الخاصة) مهما كان قرب الأكثرية من الصواب والخطأ، نذكر قوله الى مالك الأشتر حينما ولاه على مصر (وليكن أحب الأمور اليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل وأجمعها لرضى الرعية، فان سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وان سخط الخاصة يغتفر برضى العامة).

قولي في المقدمة، المرجعية الدينية الشيعية في النجف منذ تأسيسها غلبت الدور الاجتماعي في سلوكها على الدور السياسي لأنها تدرك أن المجتمع يحرك السياسة وليست السياسة تحرك المجتمع. وهذه النظرة جاءت أيضا كإرث وراثته المرجعية من الامام علي (ع) قوله الى مالك الأشتر (ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه

الأمة، وأجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن).

مفهوم الدولة عند الامام علي (ع) كان لها مفهوم يختلف عن مفهوم الدولة لافلاطون الذي بنى فلسفته على أحقية الحكماء أو العلماء بقيادة الدولة السياسية وتنظيم المجتمع، وكذلك تختلف قليلا عن مفهوم الدولة عند أرسطو الذي قال بأن شرعية الحكم تأتي من الناس وليس من النخبة. لكن أرسطو حاول كيفية إيجاد التوازن بين الحرية والسلطة أي مثلما كتب في هذه الفكرة الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو وسماه بالعقد الاجتماعي. اما علي بن أبي طالب فقد جعل الحرية هي الفيصل في فصخ هذا العقد بين الناس والدولة حتى لو كانت في ساحة الحروب. أي فلسفة الامام علي للدولة كانت بالديمقراطية المباشرة مع الاستفتاء الشعبي الدائم حتى في ساحات الحرب. لا سلطان ولا قيمة اعلى من الحرية والناس هم لهم حرية الاختيار الدائم.

ممکن أختتم قولي ، الامام علي(ع) كان ينادي ويدعوا الى قانون عالمي ليس فقط لحفظ الانسان بل لحفظ الانسانية جمعاء.

المرجعية الدينية في النجف منذ تأسيسها غلبت الدور الاجتماعي في سلوكها على الدور السياسي. وكانت تعتبر نفسها كوجود ضمن هوية عراقية جامعة للمكونات الاثنية والدينية المختلفة. تعتبر المرجعية سلطة الشيعة وليست السلطة الحكومية. أعطت المرجعية هبة الى شيعة العراق حيث كان الملوك والرؤساء يزورهم في النجف ولم نرى مرجعا زار الملوك او الرؤساء عدى صدام حسين اراد ان يكسر هذا التقليد باجبار السيد الخوئي القدوم الى قصره الجمهوري ولكن هذه كانت خطأ كبيرة تسجل عليه. أما الطائفة السنية مرجعيتهم هي السلطة الحاكمة. هذه الصورة مستمرة منذ تسعة قرون تقريبا. اليوم المعادلة اختلفت،

لكن النسيج الاجتماعي العراقي يحتاج الى مرافقته بهدوء للتكيف على هذه الحالة الجديدة. الشيعة لا زالوا يعتبرون سلطتهم المرجعية بينما المرجعية تؤكد وتطلب منهم ان يأخذوا دورهم ببناء سلطة دولة حديثة وان تكون المرجعية هي سلطتهم الروحية وليست السياسية، وسلطتهم السياسية هي الدولة ومؤسساتها. وهذا يحتاج الى وقت الا ان المرجعية تدرك بوضوح دورها بالحفاظ على النسيج الاجتماعي العراقي وعدم تمزقه. بناء دولة مدنية حديثة امر جدا معقد. خاصة في العراق، لقد اقصوا العراقيين من فن بناء وقيادة وصيانة الدولة منذ اكثر من ٧ قرون خلال الحكم العثماني. اليوم المرجعية تريد من الشيعة ان يغيروا من سلوكهم بتعزيز مفهوم السلطة هي الدولة الحديثة، ومن السنة بان السلطة هي ليست فقه ديني بل مرجعية سياسية لكل العراقيين. لذلك لم تفرط المرجعية بوحدة النسيج الاجتماعي العراقي. السؤال الذي يطرحه العالم هو، من اين جاءت هذه النظرة الفلسفية للدولة ولعلاقة الانسان بالآخر وللحياة لمرجعية النجف الأشرف؟ هذا الدراسة سوف تكشف سر هذا السلوك الذي حير كثير من المهتمين بالفلسفة الدينية او علم الاجتماع الديني. انا شخصا وجدت ان تميز مرجعية النجف عن غيرها من المرجعيات هو يعود للهوية العراقية التي تمتد جذورها الى اكثر من ٤٠٠٠ عام. وهذه الهوية هي التي تدفع النسيج الاجتماعي العراقي بأخذ هذه المسارات والمنحنيات. أي مرجعية النجف تحكمها خصوصيتان، هما خصوصية الزمان اي التاريخ الاسلامي وتاريخ وادي الرافدين، وخصوصية المكان هي النجف الاشرف المدينة التي بنيت حول قبر الامام علي ع وشخصية الامام علي ع زرعت منظومة من القيم الروحية والخلقية والسياسية في جسد مرجعية النجف وكانها مدرسة طلابها المرجعية ومعلمها وحكيمها الامام علي ع.

هذه الدراسة سوف تجيب لنا على عدة اسئلة منها، لماذا شيعة العراق لم يتخذوا نفس المسار في بناء دولة حديثة مثل شيعة ايران؟. كذلك، سر اعطاء الحرية الكاملة للشعب العراقي في تقرير نوع الدولة التي يبغى تأسيسها وقيادتها وصيانتها؟ والسؤال الأخير هو، عدم تغليب الوجود الشيعي على الهوية العراقية الثقافية. ان شاء الله قد اكون موفقا على الاجابة والتوضيح لما ذكرته اعلاه.

المصادر:

1-Ferry Luc , La maison de la philosophie, paris, 2012

٢. ناجي عبد الجبار، التشيع والاستشراق، المركز الأكاديمي للأبحاث، ٢٠١١

٣. فضل الله محمد حسين، مقابلة خاصة مع الباحث، ٢٠٠٣

٤. فتوى الجهاد الكفائي: أفتى السيد السيستاني في ١٣ حزيران ٢٠١٤م القادرين على حمل السلاح ومقاتلة الارهابيين الى التطوع للانخراط في صفوف القوات الأمنية، عقب سيطرة تنظيم داعش على مدينة الموصل وصلاح الدين وديالى.

٥. قاسم حسين مظفر، شبكة ZNN في 16/06/2018.

٦. بيان مكتب سماحة السيد السيستاني حول الانتخابات النيابية في العراق لعام ٢٠١٨م، موقع سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني.

7-Connerton Paul, How societies remember. Revue française de sociologie 1991.

8- Faucault Michel, Les corps, cahiers philosophique, 2012 no.

130

9- Bourdieu Pierre, le corps comme signifiant social. Acte de la recherche en science sociales, 1977.

١٠. سفيح عبد علي، دراسة حديثة في السلوك الفردي والجمعي للعراقيين. مؤتمر لندن ٢٠١٥.

11- Freud Sigmund : Introduction à la psychanalyse. Paris 2015

١٢. انتشار الاسلام والتعريب في العراق-سليم مطر.

١٣. بناء المفاهيم في الدولة الحديثة، المواطنة والدستور انموذجا. حكمت النحاتي- شبكة النبا المعلوماتية ٢٠١٧.

١٤. المنابع الاجتماعية والثقافية للعنف. فالح عبد الجبار. الفرات للنشر والتوزيع. بيروت ٢٠٠٨ ص ١٨.

١٥. سفيح عبد علي، دراسة حديثة في السلوك الفردي والجمعي للعراقيين. مؤتمر لندن ٢٠١٥.

16- Attali Jacques, les chemins de l'essentiel, 2018, paris.

17- BERSTEIN Serge, MILZA Pierre, Histoire de l'Europe. Tome 3. États et identité européenne (XIVe siècle-1815), Paris, Hatier, 1994

١٨. طه حسين: كتاب الفتنة الكبرى علي وبنوه. القاهرة ١٩٥٦

١٩. عباس محمود العقاد: كتاب عبقرية علي. المكتبة العصرية بيروت

٢٠. عبد الرحمن الشرقاوي: كتاب علي امام المتقين. بيروت لبنان ١٩٨٥

٢١. جورج جرداق: كتاب علي صوت العدالة الانسانية. بيروت ١٩٥٤

٢٢. محمد سعيد الطريحي: كتاب علي امام الامم. صدر بمناسبة مهرجان الغدير

العالمي الاول ٢٠١٢

٢٣. سيد عطية أبو النجا. كتاب نهج البلاغة مترجم الى الفرنسي. بيروت ١٩٨٦

٢٤. كارل ماركس: ١٨١٨-٨٣١٨. فيلسوف وعالم أقتصادي ومؤرخ. من

أصل ألماني

٢٥. داروين : ١٨٠٩-١٨٨٢. بريطاني الأصل.

٢٦. اينشتاين. عالم فيزياءوي الماني ت ١٩٥٥.

٢٧. فرويده هوبل : عالم فلكي أول ما أطلق تسمية البيك بونك عام ١٩٥٠

٢٨. نيتشة : ١٨٤٤-١٩٠٠. فيلسوف ألماني الاصل

٢٩. سيد عطية أبو النجا : كتاب نهج البلاعة ص ٢٦ بيروت ١٩٨٦

٣٠. نفس المصدر السابق. ص ٣٦

٣١. نفس المصدر السابق. ص ١٥٠

٣٢. نفس المصدر السابق. ص ٣٦

٣٢. نفس المصدر السابق. ص ٤٦٥

٣٣. نفس المصدر السابق. ص ٣٨٤

٣٤. نفس المصدر السابق. ص ٤٦٠

٣٥. نفس المصدر السابق. ص ٥٨٨

٣٦. نفس المصدر السابق ص ٢١٥